قُصاصات
من
الحياة
فاطِمة غالي
مجموعة
قصصية

قصاصات من الحياة

بقلم

فاطمة غالي

الغلاف والتصميم الداخلي

هند يحيى

مراجعة وتعبئة وتنسيق

مي محفوظ

هناك حكايا نجسدها بقلمنا من وحي الخيال هروبًا من وقع الحياة علينا وما أحبها وأقربها لقلوبنا.

وبقلمي اخترت لكم حكايا من واقع الحياة جسدتها كي تصبح حبرًا على ورق بحلوها ومرها، ربما لنأخذ منها العبر.

وأنا لا أقدم النصائح هنا، فقط أقص عليكم القصص كما وقعت دون زيادة أو نقصان فمن أنا حتى أغير شيئًا من أقدار الله عز وجل، هي أقداره ما علينا إلا أن نُسلِم لمشيئته.

مأدبة الموتى

بين زرقة البحر الهادئ والجبال الخضراء الشامخة تقبع مدينة صغيرة في مكان ساحر يأخذ الألباب، فيها أناس من الطبقة الغنية المعروفة بالجود والكرم، والطبقة الفقيرة الكادحة ولها من الكرامة وعزة النفس.
هناك يعيش محمود وهو من الطبقة الكادحة ويمتهن مهنة (السَّقَّا) ،يوفر الماء الصالح للشرب لأهل المدينة.
يقيم هو وعائلته المُكونة من ولدين في السابعة والثانية عشرة وزوجته صفية التي تعمل خادمة في تنظيف المنازل تحت الطلب، تساعده على المعيشة.

في صباح أحد الأيام استيقظ محمود، نهض من فراشه الأرضي البسيط كبيته الذي كل ركن فيه يدل على بساطته.

كان يشعر بوعكة صحية لكنه لم يبال بها واستعد للذهاب لعمله دون فطور كعادته.

انتبهت له زوجته صفية

"مابك يا محمود؟ لما وجهك شاحب، هل أنت مريض؟"

"لا، لست مريضًا... مجرد دوار بسيط"

سألته بقلق

"لما لا ترتاح اليوم ؟"

"وهل كتبت الراحة لنا؟ إن لم أعمل سنموت من الجوع"

لم يستجب لمحاولاتها إقناعه وخرج إلى عمله ليقع هناك مغشيًا عليه واجتمع الناس حوله فإذا به قد فارق الحياة.

****

عادت صفية من عملها حاملة معها ما لذ وطاب من مأكولات لأطفالها، وبينما هي تحضر الأكل سمعت طرقًا عنيفًا على الباب وضجيجًا خارج المنزل.
وضعت يدها على قلبها بجزع وهرعت لتفتح الباب، رأت زوجها محمولا على الأكتاف والناس يرددون "إنا لله وإنا إليه راجعون" فسقطت مغشيًا عليها من الصدمة.

******

أقيم عزاء ضخم، امتدت فيه الموائد التي أقامها أثرياء المدينة كما هي عادتهم عند فاجعة الموت، لا يوقد عند أهل الميت فرنٌ لمدة ثلاثة أيام ويقوم الجيران والأقربون بالواجب كاملا.

دُفنَ الميت وانتهى العزاء وبقي من الطعام مايكفيها هي وولديها لمدة لابأس بها،

وامتنعت هي عن العمل ولم يطلب أحد خدماتها لظروفها.
بعد مدة بدأ الأكل ينفد فقررت صفية الرجوع لعملها وعرضت خدماتها لكن هذه المرة قوبلت بالرفض.

في أحد الأيام وصلتها رائحة الخبز من الشارع، أطلت من النافذة فرأت عربة قرب بيتها.
هرعت لطلب رغيف خبز لأطفالها لكن العربة انطلقت دون أن يراها صاحبها واستحت هي أن تناديه وعادت إلى بيتها تجر خيبة أملها.

مر يوم والثاني ثم أُصيب الصغير بالحمى فبات يهلوس بتناول اللحم الطازج، حتى بح صوته الهزيل.
ظل أخوه الكبير ينظر إليه في صبر ثم التفت إليها هامسًا

"متى سيموت أخي؟"
"لماذا هذا السؤال؟"
سألته وقلبها يرجف بجزع فأجابها
"كي يرسل لنا أهل المدينة مأدبته مثل أبي
فأنا جائع"

"مقتبسة من قصة أجنبية"

****

الصديقان

"أسمر"

ذات يوم ذهب أبي إلى غرفة جديّ
ليستئذنهما في ترك بيت العائلة الكبير
والسكن في بيت خاص بعائلتنا الصغيرة
المكونة منه وأمي وأختي الأكبر مني وأنا
بالطبع، فبيت العائلة ضاق علينا كثيرًا بعد
زواج أعمامي.
ولمصلحتنا أيضًا أن يكون لكل واحد منا غرفته
الخاصة فقد كبرنا ولم يعد يليق أن نتشارك
غرفة واحدة، خاصة شقيقتي التي تحتاج
بعض الخصوصية. لم أفهم وقتها لصغر سني
لكن هكذا قال أبي.

وافقه جدي الرأي وتمنى له حياة سعيدة مع أسرته الصغيرة وقال له بالحرف الواحد "أنا لا أعارض أحدًا منكم سواء أنت أو إخوتك إن أردتم الاستقلال بحياتكم بعيدًا عني، بالعكس يا بني اذهب وعش حياتك أنت وأسرتك... والله يوفقكم أجمعين"
قبَّل أبي أيديهما بعد سماحهما له بالمغادرة فهو لن يفعل شيئًا دون موافقتهما والدعاء له بالبركة.

بدأ أبي بالبحث وقصد مكتب عقارات مختص في هذه الأمور وكلفه بإيجاد بيت يناسبنا ويكون في متناول المبلغ الذي معه.
لم يجد إلا شقة في عمارة بأحد الأحياء السكنية الهادئة، وافق رغم رفضه رفضًا قاطعًا من قبل السكن في شقة فقد تَعود على الطراز العربي؛ بيت فيه غرف أرضية كثيرة مع ساحة

كبيرة تتوسط البيت والسماء تظهر أعلى الساحة، لا شيء فوقه عكس السكن في العمارة فطرازها لا يعجبه.
كلٌ فوق بعضه البعض كان يُشعره بالاختناق، ولكن ماباليد حيلة فهذه الشقة الصغيرة أخذت كل مالديه من مدخرات، والميزة الوحيدة التي أعجبته في هذا الحي السكني المتكون من ثلاث عمارات؛ ثلاث طوابق في كل واحدة، هو عدم وجود سكان كثر وهدوء ونظافة الحي.

على عكسه تمامًا كانت أمي، والتي طالما حلمت أن تسكن شقة حتى ولو صغيرة المهم عندها أن تجمع أسرتنا الصغيرة ونعيش لوحدنا، فهي الآن حرة في منزلنا تطبخ ما تشاء وتفعل ببيتها ما تشاء، عكس بيت العائلة حيث كل شيء بحساب ومن كثرة

سكانه كانت لا تسطيع الفراغ من أشغال البيت والاعتناء بي وبأختي.

وأكثر ماكان يؤرقها كيف ترسم السعادة البادية الآن على وجوهنا لانتقالنا إلى هذا البيت، فأختي كانت سعيدة جدًا بعد أن صار لديها غرفة خاصة تحلم كيف تجعلها جنتها بأحلامها الوردية، وأنا أيضًا كنت أحلم كيف ستكون غرفتي مملوءة بالألعاب التي سيشتريها لي أبي.

أول ليلة في البيت قضيناها بعد أسبوع من النظافة وطلاء الجدران وشراء بعض المستلزمات الضرورية للبيت ونقل كل ما يصلح من بيتنا القديم.

وإنه لشعور رائع أحسست به بعد انتقالنا، كان هناك هدوء جميل أحببته، فقد كانت لي وقتها ميزة تختلف عن باقي الأطفال وما زالت لحد الآن وهي عدم الاختلاط وحب الهدوء، ومع العائلة الكبيرة كنت دائمًا في كنف أمي ملتصقًا بها رغم وجود أولاد في مثل عمري.

كنت سعيدًا وكانت السعادة بادية على وجوه الجميع وخاصة أمي التي لم ترتح لحظة وهي تنظف وترتب وتطبخ لنا ما لذ وطاب من المأكولات.
كانت أمي في المطبخ عندما سمعت الجرس يقرع... من يأتي في هذه الساعة؟ كان وقت المغرب ليس وقتًا الزيارات... سمعت أمي تنادي علي.

"أسمر حبيبي، تعال وأنظر من العين السحرية من بالباب"
"حاضر يا أمي"
ذهبت لتنفيذ ماطلبته مني وعند وصولي للباب وقفت حائرًا كيف أنظر من العين السحرية وهي عالية هكذا.
خطرت في بالي فكرة فذهبت مسرعًا قاصدا المطبخ، حملت كرسي الطاولة متجهًا به للباب

"ماذا تفعل يا أسمر؟! أين تأخذ الكرسي؟"
"ألم تطلبي مني النظر من بالباب؟ آخذه لأصعد عليه وأرى من العين السحرية فهي عالية"
ضحكت أمي
"يا حبيبي، نسيت يا صغيري أنها عالية عليك. يا رجلي الصغير أنت... حسنًا دع الكرسي

ولنذهب معًا... أنا أرى من العين وأنت تفتح الباب، اتفقنا؟"

تركت الكرسي مكانه واتجهنا معًا إلى الباب
"أمي، احمليني لأرى أنا أيضًا أرجوك"
"حسنًا يا صغري... تعال"
حملتني كي أرى من العين السحرية وسألتني
"هه، ماذا ترى يا أسمر؟"
"هناك امرأة يا أمي وتحمل في يديها صينية مغطاة"
أخبرتني ناصحة
"حسنًا، دعني أفتح أنا بما أنها امرأة فلا يجوز أن تفتح لها أنت لأنك رجل، فهمت يا أسمر؟"
"نعم يا أمي فهمت، لا يجوز للرجل أن يفتح الباب على امراة".
"شاطر أنت يا حبيبي"

فتحت أمي الباب، كانت المرأة تبدو مثلها في السن وفي يديها صينية مغطاة، كنت متشوقًا أن أرى مايوجد فيها.
عرَّفت عن نفسها أنها جارتنا المقابلة وأتت لترحب بنا وتقدم لنا صينية العشاء في الليلة الأولى لنا في منزلنا الجديد فهي العادة عند قدوم أي عائلة جديدة للسكن، يجب على الجيران تقديم العشاء لهم كعربون المحبة والترحيب بهم في حيهم.

شكرتها أمي على الصينية وطيب أخلاقها ودعت لها بقبول اللّٰه هذا المعروف.
عند انشغال أمي مع الجارة لفت انتباهي طفل صغير بعمري تقريبًا يختبئ وراءها، نظرت إليه والتقت عيوننا دون أن يُكلم أحدنا الآخر.

شعرت بشيء غريب، كأنّها طريقة تعارف فريدة من نوعها، طريقة لغة العيون والتقاء الأرواح لتتآلف وتكون علاقة متينة مع الوقت.

****

مر أسبوع آخر في بيتنا الجديد، تم ترتيبه وشراء كل النواقص، ولا أنسى طبعًا الهدايا التي وصلتنا من جدي وأعمامي وباقي العائلة ليكتمل البيت ويصبح جنتنا الصغيرة.
حان وقت عمل عزومة للجيران هكذا قالت أمي لأبي، كنا على الطاولة مجتمعين على العشاء عندما صرحت أمي بذلك.

"عزومه؟! وهل هي واجبة يا حبيبتي ؟"
"نعم، هي واجبة كي نتعرف على الجيران ويتعرفون علينا، وهي عزومة على مائدة القهوة لن تكلفنا الكثير"

"حسنًا يا عزيزتي، اعملي ما ترينه مناسبًا"

بعدما استأذنت أبي، بدأت أمي بتحضير ما يلزم للعزومة من صنع ما لذ وطاب من مخبوزات وحلويات، بعدها أرسلت أختي للجارات لتعزمهم بعدما جهزت كل شيء.
في اليوم الموعود أصبح بيتنا مملوءًا على آخره وحضر كل الجارات اللاتي دعتهن أمي، كل واحدة تحمل هدية بمناسبة السكن الجديد مرحبين بنا.
استقبلتهم أمي في الصالون المجهز بمائدة مملوءة بالقهوة والحلويات والمرطبات وقد تفننت بأناملها الذهبية لهذه المناسبة فهي بارعة جدًا في صنع الحلويات.

كان بالبيت ضجيج كبير من كلامهن الذي أسمعه من غرفتي رغم غلقي للباب، وبينما أنا

منهمك باللعب التي اشتراها لي أبي دخلت أمي تناديني فأجبتها
"نعم أمي "
"هل تذكر عندما أتت الجارة وأحضرت لنا صينية العشاء؟ هل تذكر ابنها؟"
"نعم أمي أذكره... مابه؟"
"لما لا تذهب وتدعوه ليجلس معك في غرفتك؟"
"ولكن أمي، أنا لا أعرفه"
أخبرتني بهدوء
"ستتعرف عليه وتلعبان معًا فأنت جديد هنا ولا بد أن تُكوِن صداقة مع أحد، أليس كذلك صغيري؟"
"نعم أمي...حسنًا، سأذهب إليه وأدعوه للحضور"
"حسنًا بني، اذهب وأنا سأحضر لكم صينية قهوة مع الحلويات"

ذهبت قاصدًا البيت المقابل لأحضر ذلك الصديق الجديد المزعوم من طرف أمي.
قرعت الجرس وانتظرت، ثواني حتى فتح الباب وظهر الولد الذي أتى ذلك اليوم.
بقينا نحدق في بعضنا لثوان حتى رفعت كفي فجأة للمصافحة وقطعت ذلك التواصل الغريب معرفًا بنفسي
"مرحبًا، أنا أسمر وأتيت لدعوتك إلى غرفتي لنشرب القهوة ونلعب معًا"
بقي ينظر إليّ ثم اتجهت عيناه ليدي الممدودة وشرع في رفع يده لمصافحتي معرفًا بنفسه هو الآخر
"أهلاً بك، أنا آدم وسعيد بدعوتك لي "
بقينا متعانقي النظرات واليدين وكأنما نتعاهد على شيء لم أدركه وقتها.
*****

منذ تلك اللحظة لم نفترق أبدًا أصبحت غرفة كل واحد منا غرفة الآخر وبيت كل واحد منا بيته، اجتمعنا معًا وبنا اجتمعت العائلتان في السراء والضراء.

مرة في فرح أختي وكأنه عرس أخت آدم، ومرة في مصاب آدم وكأنه مرضي أنا.

وفي أحد الأيام كنا نلعب في غرفتي حين سألني آدم

"ماذا نعمل عندما نكبر يا أسمر؟"

نظرت إليه وكأنني أسأل نفسي معه... ماذا نعمل؟

"يجب علينا أن ندرس أولا يا آدم وأن نكون متفوقين في الدراسة"

"حسنًا... وماذا ندرس كي نكون متفوقين في الدراسة؟"

"لا أدري... ماذا تريد أن تصبح أنت عندما تكبر؟"

"أريد أن أصبح طبيبًا... ماذا تريد أن تصبح أنت؟"
"إن أصبحت أنت طبيبًا سأصبح مثلك... ماذا اتفقنا من قبل يا آدم؟"
"أن لا نفترق أبدًا"
قلناها معًا بصوت واحد كعادة أصبحت لا تفارقنا عند نعزم على شيء.

وأتى اليوم الموعود، يوم الدخول المدرسي... كانت العائلتان مستنفرتين لتجهيزنا معًا من أدوات مدرسية إلى ملابس جديدة، اشترينا نفس الملابس ونفس الأدوات حتى المحفظة نفسها، فقط اللون ما يفرق بينهما كلون بشرتنا، فأنا أسمر اسم على مسمى كما يقولون وآدم كان أبيض البشرة، غدونا كالتوأم للناظرين.

دخلنا نفس المدرسة وفي قسم واحد أيضًا
كي لا نفترق أبدًا.

****

مرت الأيام والسنين من المدرسة الابتدائية إلى الإكمالية إلى الثانوية، ومن نجاح إلى نجاح وصولاً للمبتغى آخر السنة في الثانوية.

ويوم إعلان النتيجة كان يوم فرحة للعائلتين، كيف لا وقد تفوقنا وبدرجة تخول لنا اختيار أحسن الجامعات .

نظر كل منا للآخر، تصافحنا مبتسمين، نتذكر أول مصافحة لنا وأول عهد قطعناه لبعضنا.

"أتذكر يا أسمر بما تعهدنا؟"

سألني آدم

"طبعًا يا آدم، إنه عهد قطعناه لبعضنا وهل يُنسى؟"

قلنا معًا وبصوت واحد

"معًا إلى الطب"

وسط مباركات وزغاريد الأهل والجيران
وأهازيج الأصدقاء احتفلنا بنجاحنا في قاعة
خصصت لهذه المناسبة، وعلى قول والدينا
نحن نستحق كل هذا وقد كنا دائمًا مصدر فخر
العائلتين.
ولم تكتف العائلتان بهذا...
عطلة إلى الساحل لمدة خمسة عشر يومًا
كانت المفاجئة الكبرى التي صرخنا على إثرها
أنا وآدم بعد إعلان والدينا عنها.

"في أجمل منتجع وأفخم فندق ستمضيان
عطلتكما ولكن بشرط...."
قالها والدي باتفاق مع والد آدم
"نعم... نعم... موافقان على كل شروطكما"
قلناها في صوت واحد
"لا اختلاط... لا سهر لوقت متأخر من الليل
ولافي الأماكن المشبوهة... ولا بنااا... تفهمون

ما نقصد بدون تفصيل أكتر؟ وتذكرا أنكما تحت أعيننا، مفهوم؟"

حذرنا والد آدم

"حاضر، هل هناك أوامر أخرى سيداي"

قلناها معًا بتحية عسكرية فضحكا

"لا، أيها الشقيان"

رحنا نتعارك ونمزح مع والدينا أمام أعين والدتينا التي ملأتها دموع الفرح وعلى لسانيهما دعوات لله بالحفظ من كل شر والتوفيق في حياتنا القادمة.

****

مرت عطلتنا كما خُطط لها ،مرت علينا كغمضة عين من شدة ما استمتعنا بها واسترخينا فيها نافضين عنا كل التعب والجهد المبذول في السنوات الأخيرة من توتر و ضغط الدراسة، ومجددين طاقتنا فالقادم

أصعب بمراحل من الذي مر في حياتنا، سننتقل ونودع حياة الطفولة والمراهقة إلى حياة الشباب، نرسم طريقًا نحو الأفق إلى عالم الوعي والجدية لتحقيق أحلامنا وطموحاتنا المرجوة.

"هيا يا أسمر أسرع فأمامنا يوم مرهق من استخراج الوثائق المطلوبة والذهاب بها للجامعة وأكيد سنجد هناك طابورًا طويلا... إن لم نسرع لن نكون في أوله"
استعجلني آدم فأخبرته وأنا أرفع فنجان قهوتي
"انتظر دقيقة يا آدم، تعرف أنني لا أستطيع الخروج دون شرب قهوتي وإلا سيمضي نهاري أسود أكثر مما ينتظرنا"

أيام وتبدأ حياتنا الجديدة ودخولنا إلى عالم وحده الله يعلم ما ينتظرنا فيه وهل سنبقى

على عهدنا منذ الصغر أم هناك أشياء قد تحدث في المستقبل قد تنقضه؟ وهل هناك احتمال ولو صغير لتغيرنا عن بعضنا؟
مستحيل... نفضت هذه الأفكار من رأسي بينما أرافق آدم لننهي استخراج وثائقنا المطلوبة.
انتهينا بعد أسبوع كامل من تقديمها لإدارة الجامعة.
وأتى أول يوم لنا في الجامعة المكتظة بالطلبة، دخلنا بخطى ثابتة لا شيء قد يبهرنا أو يفاجئنا، وكم سمعنا عن رهبة أول يوم في الجامعة ولكن لم نشعر بها أبدًا.
رغم عدم اختلاطنا بأحد طيلة حياتنا واكتفائنا ببعضنا البعض، لم تكن لدينا أي رهبة من الناس، نمشي بثقة في الجامعة جنبًا إلى جنب، لا نلتفت لأي شخص أو أي مجموعة

نمر عليها حتى أننا لفت انتباه الطلبة يحدقون بنا، وتساؤُل يظهر في عيونهم "من نكون؟"

وتوالت الأيام مثل بعضها منذ انتسابنا للجامعة؛ دروس مكثفة ومحاضرات لا نفوت منها أي محاضرة لا أنا ولا آدم، وفي أحد الأيام كنا نجلس على أحد المقاعد الإسمنتية في ساحة الجامعة مثل البقية ننتظر موعد المحاظرة التالية لفت انتباهي إحدى المجموعات المختلطة يوجهون أنظارهم إلينا.

"أترى ما أرى يا آدم؟"
"أرى يا أسمر"
"ولكن مابهم؟ لما يحدقون بنا هكذا؟ هل هم مستغربون لأننا لم ننضم إليهم؟"
أجابني بهدوء
"دعك منهم يا أسمر، ومنذ متى يهمنا الناس؟"

بقيت أنظاري متجهة نحوهم، كانوا ينظرون إلينا ويتكلمون فيما بينهم، كنت متأكدًا من أنني وآدم كنا محور حديث تلك المجموعة.

فيما أنا أنظر ناحيتهم لفتت انتباهي إحدى الفتيات، كانت واقفة معهم تنظر ناحيتنا هي أيضًا ولكن دون أن تتكلم معهم، وكأنها منعزلة عنهم في عالم آخر.

كانت سارحة ناحيتنا دون أن تنتبه هكذا ظننت، فسرحت بجمالها الملفت دون جهد منها، كانت بمظهرها البسيط وطرحتها الوردية على رأسها زادتها حمرة على خديها وبياض بشرتها تَشعُ رونقًا وجمالاً... والملفت أنها كانت عكس البنات اللاتي معها، بلبسها المحتشم وغير المفصل لجسمها كما هو شائع هذه الأيام.

وبينما أنا سارح في دنيا غير الدنيا لم أشعر بآدم وهو ينادي علي حتى هزني من ذراعي كي أنتبه

"آآآآه... ماذا هناك يا آدم؟"

"مابك يا أسمر؟ أنادي عليك ولا تسمعني؟ هيا هيا إلى المدرج سوف تبدأ المحاضرة "

"حسنا هيا"

اتجهت معه للمدرج بعد ما انتزعني من عالم الخيال، والذي كنت أحسبه جميلا وقتها.

****

مرت الأيام بعدها رتيبة دون اختلاط بأحد في الجامعة ولكن لم تترك بالي تلك الفتاة منذ اليوم الذي رأيتها فيه، أحاول اغتنام كل فرصة تتيح لي لرؤيتها من بعيد

"هل تعجبك؟"

" هاا ماذا تقول؟ أكيد... أقصد أكيد لا"

"لما تنكر يا أسمر؟ أنت مفضوح... وماذا فيها؟ يحق لك أن تحب أو تعجب بأي فتاة"

"حسنًا سأصارحك، ومنذ متى نخفي شيئًا عن بعضنا؟ نعم، تعجبني يا آدم من اليوم الأول الذي رأيتها فيه"

"هذا رائع... ولكن لما لا تذهب وتصارحها؟"

"أصارحها بماذا؟ هل جننت؟ لا أعرف حتى إن كانت تبادلني الإعجاب، كيف أذهب وأصارحها؟"

صمت مفكرًا ثم أخبرني

"حسنًا، لنفعل ما يلي... أولا ننضم إلى المجموعة الموجودة فيها، وبعدها نرى ما سنفعل"

"فكرة رائعة يا آدم... حسنا نفعل ما تريد"

وحدث ما اتفقنا عليه ورحبت بنا المجموعة كثيرًا، وغدونا لا نفارقها أبدًا لحسن سيرتهم أولاً ولأجل الفتاة ثانيًا.

****

"آدم"

لم نخف سرًا عن بعضنا من قبل، لكنني الآن أخفي سرًا عن أسمر ولا مجال لأخبره به أبدًا.

في أحد الأيام كنت أجلس وحيدًا في حديقة الجامعة بعد تغيب أسمر عن المحاضرات ذلك اليوم بسبب مرضه المفاجئ، ولم أشأ أن أفارقه لولا أهمية المحاضرة إذ نصحني أسمر بالحضور وإتيانه بالملخص كي لا تضيع عليه.

كنت جالسًا حتى تفاجأت بالفتاة التي أعجب بها أسمر تجلس جنبي، وحدها ودون دعوة مني... قمت سريعًا من مجلسي
"ماذا هناك يا هناء؟ هل تريدين شيئًا ؟ أين باقي المجموعة؟"

"مابك؟ لما قمت فجأة؟ أريد التحدث معك لوحدنا"

رددت متفاجئًا

"ماذا؟ تريدين التحدث معي أنا؟ ولوحدنا؟!"

"نعم، ولما الاستغراب؟ أنا... كنت أظن أنك فهمتني منذ مدة"

صحت فيها محتدًا

"أفهم ماذا يا هناء؟"

"يا إلهي... مابك يا آدم؟ تفهم أني معجبة بك"

"ماذا تقولين يا فتاة.؟!"

سكت متذكرًا أسمر... ماذا لو علم؟

وجحظت عيناي من هول الكارثة التي أسمعها منها ورحت مخاطبًا إياها بعنف

"اسمعي يا فتاة انا لا أنظر لك إطلاقا حتى تعجبيني، وأنت أولا لست من ذوقي... فعلا

كما يقولون المظاهر خداعة، كنت بالنسبة لي نعم الأخت المحتشمة والمتربية، يا للخسارة... إياك ثم إياك أن أراك تحومين حولي أو حول أخي أسمر، سمعتِ؟"

رميت الكلام في وجهها وتركت لها المكان والجامعة كلها وعدت إلى البيت مباشرة، تحديدًا إلى بيت أسمر بعد القنبلة التي انفجرت في وجهي.

" الغبية ستندم أشد الندم على خسارتها لأسمر فهو شخص لا يعوض"

"ستكون كارثة لو أنه علم .... لكن من أين سيعلم إن لم أتكلم أنا ومستحيل أن أخبره بشيء كهذا وتلك الغبية أعلم أنها لن تخبره أوتخبر أحدًا...

ماذا ستقول؟ هل ستقول أنها أعلنت حبها لي... يا إلهي حتى مجرد الفكرة أشمئز منها"

تلك الأفكار ظلت تدور في رأسي طيلة جلوسي مع أسمر الممد أمامي بعد مادخلت بيته للاطمئنان عليه وإعطائه المحاضرات الفائتة.

جلست أمامه جسدًا وعقلي سابح في آخر ماتعرضت له من ابتلاء.

أجل، إنه ابتلاء أو بمعنى أدق امتحان لصداقتي معه ولا يجب أن يؤثر عليَ... لا يمكن ولا يوجد أي شيء يفرق بيني وبينه.

هل بعد ما رزقني الله صداقته أفرط فيها من أجل أي شخص؟

مستحيل... وأعلم علم اليقين أنه لو كان مكاني لفعل أكثر من ذلك فقد أثبت ذلك مرارًا وفي عدة مواقف.

هل من أجل فتاة أخسر أعز صديق وأكثر من أخ لي في هذه الدنيا؟

سيعوضك الله يا أسمر أحسن مما تمنيت وأردت، أنا واثق من هذا وأنا معك في السراء والضراء.

*****

بعدها قررت تنفيذ ما خططت له من أجل أخي وصديقي، حاولت إبعاده عن تلك المجموعة قدر المستطاع بحجة الدراسة والبحوث التي نقوم بها بدل إضاعة الوقت معهم.

وحتى الفتاة فعلت نفس الشيء، لم تعد تجتمع بهم فقد حاولت الابتعاد هي الأخرى من خجلها على ما أظن، فلم ألمحها تجوب حولنا بعدها أبدًا.

أما عن أسمر فقد نسي بعد تساؤلات كثيرة كان يطرحها علي... وكما يقولون "البعيد عن

العين بعيد عن القلب"، وأظنها كانت بداية إعجاب ولم تصل لمرحلة الحب، هذا ما كنت أرجوه.

ومر العام الدراسي الأول دون أن يترك ما حدث أثرًا ولم يحدث بعده ما يهز ثقتنا ببعضنا، بل زاد ترابطنا أكثر من الأول.

وبعد جهد وتعب لم يذهب سُدى حصدنا أول تفوق لنا بالجامعة بتفوق وتقدير جيد جدًا لكل منا، محققين السعادة لعائلتينا اللتين تجتمعان الآن على طاولة واحدة محتفلين بنجاحنا

"مبروك يا أولاد"

باركوا لنا جميعًا ونظرنا كل واحد منا للآخر، تجدد نظراتنا العهد قبل أن نصافح بعضنا مرددين

"معًا وإلى الأبد"

****

رحلة الموت

وسط غضبه الهائج يقذفني للموت تارةً ويذيقني طعم الحياة بهدوئه المفاجئ تارة، وبين هذا وذاك أعيش صراعًا بين الحاضر والماضي، وأبت ذكرياتي إلا أن تمر علي كشريط سينمائي أتفرج عليه كواحد من الحضور، بعينين جاحظتين مذهول مما يحدث حولي وما أراه على شاشة العرض المثبتة أمام عيني ولا كأن الأمر يخصني أنا.

أنا بطل هذه الحكاية والسيء والضحية فيها في آن واحد إذ ظلمت نفسي قبل أن أظلم أي أحد آخر.
والأسئلة بدأت تنهال علي واحدة تلو الأخرى...
هل هذا حقيقة أم أنا فعلا في قاعة السينما؟

هل أنا مستعدٌ للمقابلة؟ هل سأنجح في أول سؤال يطرحه عليّ الملكان؟

طبعًا لا...
وماذا قدمت لهذا اللقاء؟
لا شيء.
لقد عشت حياتي بالطول والعرض ولم أُحضِر نفسي لهذا أبدًا. كنت ذلك الفتى النجيب والمطيع في طفولتي وحتى نضجي ولم أجلب أي متاعب لوالديّ حتى وصولي لذلك التغير المفاجئ إلى نقيض ما كنت عليه.
أقول كنت لأني تغيرت مئة وثمانين درجة، لا أذكر متى بالضبط حصل ذلك التغيير ولكن أذكر حصولي على شهادة البكالوريا وتلك الفرحة التي غمرت والديّ لن تمحى من ذاكرتي ما حييت لأنّها كانت الأولى والأخيرة.

يومها كنت أرى وأتابع افتخارهما بي أمام الأهل والجيران وكأن الأمر لا يعنيني... وعزمهم على إقامة حفلة كان ذلك فقط لإرضائهما وليست رغبة مني، لا أدري لما لم أكن سعيدًا مع أن كل المقومات التي تجعل أي شاب في سني سعيدًا كانت موجودة، دراسة متفوق فيها، والعيش ليس بتلك الرفاهية ولكن لم ينقصني شيء.

كنت أخطو بخطى ثابتة ومتأنية في طريق مُعبد بطريقة ما... لم يعكر صفوي أي معوقات، ومع ذلك لم أكن فرحًا أبدًا. كنت أشعر أن هذا ليس ما أريده وأنني أعيش حياة ليست حياتي، كأني أعيش حياة شخص آخر، بداخلي أشعر أن هناك صخب وفوضى عارمة تريد أن تزيح ذلك الشاب الهادئ والمتفوق

الذي أظهر عليه للعامة أو محوه من الوجود تمامًا.

ومع ذلك واصلت المشوار ودخلت الجامعة لأرى ما نهاية هذا المطاف الذي أسلكه وكنت متأكدًا أنني لن أمكث فيه طويلا لأن مابداخلي كان أقوى مني.

اخترت كلية الحقوق وتمت التسجيلات بطريقة سلسة، دخلتها وكنت واثقًا من قدرتي على النجاح فيها لأنه كان بإمكاني إقناع من أمامي بخفة وشطارة بشهادة الجميع.

دخلت الجامعة ولم تبهرني أو يغرني ذلك الانفتاح والتحرر الذي وجدته، ومع ذلك لم أكن ذلك العفيف لأن ما بداخلي كان يدفعني لهذا ويحاول التغلب على الشاب الهادئ الذي كنت عليه.

وهكذا خطوت أول خطوة نحو التحرر... والتحرر لأي شخص في سني هو خطوة الفتيات، ولم أصعد السلم درجة درجة نحوهن بل ركبت مصعد الصراحة والمباشرة للوصول بسرعة فلا وقت لدي للصبر فقد كنت أشعر أني متأخر جدًا.

جربت مع كل من وضعها القدر في طريقي نظرة ثم بسمة ثم لمسة ثم حضن، حتى من بدت محافظة ومحترمة وصلت إليها بكلمة واحدة... كلمة واحدة كانت مفتاح كل فتاة أردتها.

من هنا بدأت أنزع ثوب الهدوء والطاعة وأخرج ذلك الصخب الموجود بداخلي وأظهر شخصية جديدة علي وقد راقني النمط الجديد الذي أسير عليه، شخصية متغيرة مرحة متفتحة على الحياة التي استقبلتني بملء

ذراعيها. كان ينقصني بعض الخطط كي أحصل على كل ما أريد ولكن كانت مؤجلة لوقتها حتى أحصل على متعتي التي أحتاجها.

طبعا لاحظ أهلي التغير الذي طرأ علي وظنوا أن الجامعة والموجود فيها غيرني أو مجموعة أو شلة من الشباب فعل ذلك ولم يعلم أحد أن هذا كله كان موجودًا ولكنه كان مخفيًا بداخلي مذ زمن حتى أنا لا أعرف منذ متى.

مرت السنة الأولى بين الجامعة والبيت الذي كنت أزوره مرة في الأسبوع، و هذا في البداية فقط بعدها قلت زيارتي لهم وغدت مرة في كل شهر.
كنت أسمع من التوبيخات من والدي ما لم أسمع طيلة حياتي وكي أتجنب المزيد منها حاولت النجاح في العام الأول، وقد فعلت

إرضاء لهما فقط، ولم يدم هذا طويلا لأنه مناف تمامًا لما أصبحت عليه.

بداية من العام الثاني بدأت النزول نحو الهاوية، لم أعد أذهب للجامعة أو أحضر أي محاضرة، وإذا حضرت أحضر لهدف معين، وقصدًا مني وليس ضعفًا رسبت في جميع المواد وكنت أعيدها كل مرة وهذا كله كي أترك الجامعة التي لم تعد تناسب طموحاتي، وقبل أن أخسرها يجب أن أكسب من الجهة الأخرى.

بدأت أنتقي خطواتي جيدًا، يجب أن أستفيد منهن قدر استطاعتي وبدهائي أضحت أرقى البنات وأرفعهن منزلة ومالا وجاها يقعن في شباكي وكل طلباتي منهن مجابة ودون أي

مجهود يذكر وكانت وسامتي تلعب دورًا كبيرًا في هذا.

وليس كل الأبواب تفتح بمفتاح واحد، تعددت الأبواب وكل باب له مفتاح سري.

أصبحن يتهافتن علي وكل يوم مع فتاة أقضي معها أجمل الأوقات، استجمام في أرقى النوادي وأفضل المطاعم وكل هذا على حسابهن وهذا على وعدٍ مني أن أتقدم للخطبة.

وهل يعقل أن أفعل وأربط نفسي بإحداهن بعد تذوقي طعم الحرية؟

طبعًا لا، وهل أنا مجنون كي أفعل وأرجع إلى تلك الحياة الرتيبة المملة؟

هذا كان سيحدث لو بقي ذلك الشاب الساذج والممل الذي كنت عليه، كان يمكن أن أقع في حب واحدة فقط وأكون مخلصًا لها، كانت لتكون تلك أفكاري وقتها.

وغدت كل طلباتي مجابة من معارفي ومراكزهم، فقد استغليتها أحسن استغلال... هذا ماكنت أظنه وقتها.

وقد بلغ مني الغرور درجة أني كنت أحب الظهور بمظهر الشاب الذي إن قُصِد لغايةٍ ما عيب علي أن أردها، يجب أن أقضي حاجة من قصدني سواء كان عملا أو سفرًا.

وطبعًا كل هذا ليس مجانًا، كل شيء له ثمنه، ووصل معي الأمر أن هناك من دفع دون قضاء مصلحته، كانت تخرج الأمور عن السيطرة في بعض المرات وطبعًا دون رجوع المال لصاحبه... وهل كان يبقى في جيبي لإرجاعه؟

طبعا لا... وما أجمله من شعور كنت أستمتع به، المال أولا وثانيًا لجوء المحتاجين إليّ كأني ذو منصب رفيع مثل الباشوات.

هكذا كانت حياتي وكنت أظنها أسعد حياة.

****

تلك الأيام التي عشتها بالطول والعرض وكنت أحسبها متعة، كانت متعة مؤقتة لم تدم طويلا ومتعة مزيفة وليست بحقيقة.

تحسرت على ما ضاع مني من أحلام تمنيتها أن تتحقق بفرقعة إصبع كما كانت تتحقق للغير.

يا الله، هل سأقابلك بهذا؟!

وهل أعتبر منتحرًا إن توفيت فيما أنا فيه؟

يا الله، أعلم أن ما أقدمت عليه كان خطرًا جدًا ولكن ليس لدرجة أن أقدم على الانتحار مباشرة.

كان كل أملي أن أنجح وأعبر إلى الجهة الأخرى وأحقق ولو جزءًا يسيرًا من العيش الكريم... ولا أقول أحلامي لأني أنا من أضعتها بتصرفاتي

الطائشة والتي ظننتها شطارة وبذكائي سأحققها حتى انقلب كل شيء ضدي.

شُخصت بالمضطرب النفسي، وهذا كان بعد تقدمي لدخول معهد الشرطة والتي أردتها بشدة، نجحت في جميع المستويات حتى وصلت عند الطبيبة النفسية والتي شخصت حالتي بالمضطرب وتم رفضي بسببها.

وكانت قصمة ظهر بالنسبة لي وبداية الانحدار نحو الهاوية بعد ما ظننت أني في القمة وبسببها ازداد طيشي ولم يعد يهمني شيء ولا أخاف من شيء حتى أني أقدمت مرة على انتحال شخصية صديقي الذي قدم معي في معهد الشرطة وتم قبوله هو ورفضي.
كان يُعيرني بطاقته فأتجول بها حيث يسمح للشرطة بالدخول مجانًا حتى قُبض علي مرة

وقدمت لهم ملف الطبيبة النفسية وأطلقوا سراحي.

كانت هذه حياتي بعدما فقدت الأمل في كل شيء وفقدت كل السبل حتى وصلت إلى ما أنا فيه.
وحتى هذا أتاني فجأة ودون تخطيط مسبق... فقط كنت أذهب للبحر كثيرًا في الآونة الأخيرة وذات يوم رأيت شبابًا يركبون قاربًا صغيرًا وينتظرون حتى يكتمل العدد المطلوب للإقلاع، حتى رأوني وأنا جالس فوق صخرة أنظر إليهم.
رأيتهم يشيرون نحوي ويندهون علي كي أسرع للالتحاق بهم، دنوت منهم بلا إرادة وكأني مسير... فجأة أمسكوني من يدي كي أركب معهم وركبت.

بين لحظة وأخرى تفطنت أين أنا وكأني غبت عن الوعي واستعدته فجأة...
قلت لهم ليس عندي مال كي أدفع لأني أعرف أنه يدفع أموال طائلة للركوب، فقال لي صاحب القارب لا يهم، المهم أن يكتمل العدد ونغادر بسرعة قبل أن ينكشف أمرنا ويقبض علينا.

وهكذا رحلت دون تخطيط مسبق ولا وداع لأهلي أو نية أن أغادر بلدي بهذه الطريقة الخطرة.
وها أنا وسط البحر في قارب صغير منذ ثلاثة أيام بلياليها تائهين ولا نعرف أين نحن وهل سننجو من هذا أو مصيرنا الموت، فلا أحد ينجو بعد هذه المدة في عرض البحر تتلاطم بنا الأمواج وترفعنا إلى أقصاها ونحن متشبثون ببعضنا البعض والشاطر فينا من يصرخ بأعلى

صوته حتى إنني تبولت على نفسي ولم ينتبه لي أحد لأن ملابسنا تبللت كليًا من البحر وبشرتنا احترقت من ملوحته ومن الشمس الساطعة في السماء.

ويغيب عني الوعي تارة وتارة أخرى أجاهد حتى لا أغيب ويرمي بي الركاب في عرض البحر ظنًا منهم أني ميت كي يخف الحمل عن القارب.

ووسط كل هذا كنت أسمع شيئًا عجيبًا لا يصدق، كنت أسمع صوت الأذان. نعم، كنت أسمعه وبوضوح في عرض البحر وبين الواقع والغياب الذهني كانت لا تفارقني صورة أمي وأبي وخطيبتي التي تركتها رغم حبها الشديد لي.

وهذه لها حكاية لوحدها لا يسعني الغوص فيها وقد تجاهلت قصدا عدم ذكرها من الأول من خزي مافعلته معها.

كل هذه أسئلة وآمال كنت أتمناها فيما أنا فيه...

وفجأة سمعت أحد الركاب يصرخ بأعلى صوته أنه رأى باخرة ليست بالبعيدة عنا...

وأخيرا بعد ثلاثة أيام بلياليها أتى الفرج ؟ يا اللّٰه...

لم أصدق عينيّ عند رؤيتها وصرخ من معي حتى ينتبه لنا القبطان أو الركاب على متن تلك السفينة، وكانت هي المنقذ الذي أرسله اللّٰه لنا لنحيا حياة جديدة.

عند انتباههم لنا استسلمت لغياب الوعي...

استسلمت وغبت عن الدنيا والبحر.

كنت بين النوم واليقظة حين سمعت صوتًا بعيدًا ينادي باسمي.

"سامي... سيد سامي"

نعم إنه اسمي... وأنا من يُنادى باسمه ولكن ممن؟

بدأت أفتح عيني ببطء، وأغمضتهما مرة أخرى بسبب الضوء القوي والذي لم أعتد عليه بعد.
فتحتهما مرة أخرى ليقابلي البياض الساطع من كل جهة والممرضة عند رأسي والتي كانت تنادي باسمي... ولكن من أين علمت به؟!
لففت رأسي للجهة الثانية فرأيت خالي واقفًا ويبتسم ويحمد الله على سلامتي.
إذًا أنا في المستشفى وهو من عرفهم من أكون...

كل هذا لم يكن مهمًا، المهم هل انتهى الفيلم الذي كنت أحضره وأطفئت شاشة العرض؟!

نعم، انتهى العرض لكن لم ينته بنهاية موت البطل السيء كعادة هذا النوع من الأفلام.
انتهى، وابتدأ فيلم جديد بحياة ومكان جديدين ولا تخلو من مشاهد الحياة السابقة أكيد، فلا هروب من الماضي سواء للذكرى لتكفير عن الذنوب أوتصحيح الأخطاء.
لما لا؟
إذًا مرحبًا بالحياة الجديدة بكل ماتحمل الكلمة من معنى.
****

النصيب

واقف عند سيارته منتظرًا لحظة خروج أمه من البيت الذي يحتضن عرسًا لجيرانهم كانوا مدعوين إليه، ولحسن الجيرة دعوه هو أمه للانضمام إلى موكب العروس لإحضارها من بيت والدها إلى بيت زوجها.

تململ في وقفته نافد الصبر يتساءل متى تخرج أمه وبقية النسوة، ظل يحدث نفسه حتى رآهن يخرجن ويركبن السيارات المخصصة لهن.

رأى أمه قادمة نحوه فهَّم بركوب سيارته لكنه تسمر فجأة مكانه إذ رأى شيئًا غريبًا يرافق أمه.

لم يستطع فهم مايحصل له وهي قادمة نحوه رويدًا رويدًا كأميرات الخيال بشعرها الطويل والأسود كسواد الليل، يتطاير حولها ويجوب

حول عينيها حاجبًا عنه رؤيتهما بشكل جيد،
راحت بيديها تزيله عن عينيها ويا ليتها
مافعلت ويا ليت هو ما تمعن فيهما.
ولى وقت الندم فقد أصابه سهم سحرهما
الأسود، تلك العينين الكحيلتين الساحرتين.
لم ينتبه لوقوفها أمامه هي وأمه وامرأة أخرى...
وهل تبصر العين غيرها أو يدق القلب
لسواها؟
هيهات ثم هيهات أن يفعل بعد الآن.
لقد أصابته أميرته الساحرة بسحر العشق
الأسود.

ركبتا السيارة بعد ماقدمتهما والدته، كانت
ابنة أخت العريس والمرأة التي معهم خالتها
وهو أكيد يعرفها ولكن لِم لم يرى الفتاة من
قبل؟

كان كالغائب عن الوعي في حضورها لا يسمع أي شيء مما يُقال في السيارة فقد ضبط سمعه على صوتها وحدها متلهفًا أن يخطفه هو الآخر ويُكمل سحرها ولكن الأماني لا تتحقق كلها مرة واحدة، للأسف لم يحظ بسماع رنته.

لا يعرف كيف مر الوقت أو كيف قاد سيارته دون أن يحصل له شيء، مثل حادث في الطريق أو أن يتشاجر مع أحدهم كعادته أثناء قيادته...

لم يحدث شيء أبدًا من هذا القبيل إذ كان كالمغيب بالفعل وشيء واحد يدور في رأسه... متى ينتهي كل هذا ويعود للبيت ليُحدث أمه عنها؟

لقد اتخذ قراره ولن يزيحه عنه أحد.

وقد حدث بالفعل، مباشرة عند عوتهم للبيت كلم أمه كي تخطبها له وعلى الفور دون انتظار. حاولت الأم تهدئته ونصحته أن لا يتسرع لأنه رآها مرة واحدة ولا يعرف عنها شيئًا، وهي في قرارة نفسها متلهفة أكثر منه وقد أعجبتها البنت والأهم من ذلك أن ابنها أخيرًا قرر الزواج بعد محاولات عدة وترشيحات منها لبنات باءت بالفشل...

وأخيرا فرحتها الأولى بعد خمسة بنات سيتزوج، لم تسعها الدنيا من فرحتها وقررت ألا تنتظر خشية أن يصرف الفكرة من رأسه. خطبتها له في ذلك المساء حيث عادت لأصحاب العرس لتفاجأهم بطلبها، ولم يترددوا لحظة وأعلنوا موافقتهم مرحبين بنسبهم المشرف لحسن سيرتهم وجيرتهم التي دامت لسنوات عدة.

بعد أسبوعين من إعلان الخطبة بدأت العائلتان في تحضيرات حفل الخطبة والذي سيتم في بيت العروس وقد كان بعيدًا عنهم.

فيما هم منهمكون في التحضيرات، وإخوته البنات قد حضرن جميعًا لهذه المناسبة لصنع الحلويات وشراء ما يلزم للعروس من جهاز، خرج من غرفته معلنًا أنه لم يعد يريد هذه الخطبة ولا الزواج من الأساس.
تسمر كل من كان حاضرًا، ناظرين له بأعين جاحظة تملؤها الحيرة من تصرفه والخوف من مواجهة أهل العروس... ماذا سيقولون لهم بعد كل هذه التحضيرات؟
نهضت أمه من مكانها متجهة له، تسايره في الكلام والخوف يملأ قلبها من قراره.

"حبيبي أكيد أنت تمزح ولا تتكلم بجدية... هذا كله من التوتر قبل الخطبة... الكل بحدث معه ذلك، أليس كذلك؟"

رد بانفعال وتصميم

"لا، ليس كذلك... وهذا قراري ولا رجعة فيه... لم أعد أريدها ولا أريد الزواج من الأساس"

فجر قنبلته هذه ودخل غرفته مغلقًا الباب بعنف، فحل السكون وسط الحاضرين ولم يستطع أحد النطق بحرف واحد سوى أخته الكبيرة والتي قامت من مكانها متجهة لغرفته

"دعوه لي أنا سأكلمه... هل يمزح هذا؟ هل يريد أن يبهدلنا أمامهم وأمام المعازيم؟ مرة يريد الزواج، مرة لا يريد... مرة هي أو لا، منذ أن رآها... ماهذا الجنون الذي هو فيه؟"

حاولت الأم أن تهدئها خوفًا على ابنها المدلل وخوفًا من أن يصمم أكثر على قراره.

"بالراحة عليه يا بنتي، لا تضغطي عليه كي لا يكبر رأسه ويتعنت أكثر. أنا قلت لكم... هذا الولد ليس بخير، أكيد معمول له عمل منذ صغره... لقد حُسِدنا عندما رزقت به"

كانت تتكلم بهيستيرية وتضرب يديها على فخذيها بعدما غلبتها الدموع فهتفت ابنتها

"أمي أرجوكِ، توقفي عن هذا... لا عمل ولا هم يحزنون، هذا دلالك الزائد له هو ما جعله بلا مسؤولية... لأنه منذ صغره طلباته مجابة... ويريد أن يفرض علينا هذا القرار غير المسؤول، لأنّه ليس هو من سيواجه الناس بل أبي المسكين الذي لا حول له ولا قوة... كلا، هذه المرة أنا من سيقف في وجهه"

قالت كلمتها ودخلت لغرفته مغلقة الباب وراءها حتى تكلمه بهدوء بعيدًا عنهم حتى لا

يركب رأسه إن رأى أحدًا ممن رمى قنبلته في وجوههم... خاصة إن وصفه أحدهم بالجنون أو أنّه ليس له كلمة... هو أخوها وتعلم كيف يفكر.

بعد حوالي نصف ساعة خرجت من عنده بشوشة الوجه وأمرتهن باستئناف العمل وتشغيل الموسيقى لتظهر علامة الفرح في البيت.

نظرت تجاه أمها تطمئنها بعينيها أنّ كل شيء على مايرام وأن لا تقلق أبدًا بينما رحن أخواتها البنات يستجوبنها عما حدث وكيف أقنعته لكنها أبت أن تخبرهن لأنهن ثرثرات ولا يكتمن أي حديث.

لا تريد أن يسمع أخوها ما دار بينهما تلوكه أفواه البقية.

ولو علم أحد بما سيجري في المستقبل لأيدوه على قراره الذي اتخذه يومها.

هنا نقول... "لو" من الشيطان، والمكتوب على الجبين لا تمحوه اليدان.

حان موعد الخطبة والتي حضرها المحبون من أهل وجيران وكان هناك موكب كبير من السيارات التي خصصت لهذه المناسبة.
بعد وقت لا بأس به لبعد المدينة وصلوا أخيرًا ورحب بهم أهل العروس واستقبلوهم في قاعة مخصصة، مجهزة بكل لوازم إتمام الحفل بنجاح.
بعد أكل وشرب ورقص وقراءة الفاتحة دخل العريس للقاعة لتلبيس العروس خاتم الخطبة وتقديم ما أحضروه من جهاز انبهر به أهل العروس؛ ذهب وألبسة وكل ماتحتاجه من مستلزمات.
وكيف لا وهو فرحتهم الأولى وفرحتهم الكبرى يوم زواجه.

بعد انتهاء تلبيس الخواتم وقطع قالب الحلوى قرروا المغادرة والعودة إلى البيت وتكملة أجواء الفرحة هناك من تجهيز العشاء وربط الحنة للعريس.

انتهى الحفل وتنفس الكل الصعداء خاصة أمه وأخواته البنات بعد خوف كان يلازمهم طيلة الحفل من أي مصيبة قد يفجرها في وجوههم مرة أخرى.

****

مرت الأيام والشهور حتى أتمت سنة منذ حفل الخطوبة في انتظار أن تبلغ العروس الثامنة عشر ليتم العقد في البلدية وتحديد موعد العرس لأنها عند خطبتها كانت لا تزال في السابعة عشر ولا يمكن أن يتم العقد حتى بلوغها، ولولا هذا ما انتظروا كل هذه المدة،

فالكل لم يكن يحبذ هذا الانتظار لعدة أسباب من أهمها تقلبات العريس.

تم العقد أخيرًا وعلى إثره حُدد موعد العرس بعد شهر مر بين تحضيرات وكد وتعب للعرس الذي تم بسلام.
كانت العروس في أبهى حلة، كانت كملكات الجمال دون مبالغة الكل انبهر بجمالها والعريس أيضًا كان مبهرًا هو الآخر وفي غاية الوسامة ببدلة العرس حتى رحن أمه وأخواته يذرفن الدموع لرهبة اللحظة ورؤية عُرسه أخيرًا.
****

نظرة فخطبة فزواج...
كانت هذه الحكاية ببساطة ونهاية سعيدة يتمناها أي أحد.
ولكن هل كانت الحياة بعدها سعيدة؟

هنا نضع علامة استفهام ونكمل باقي الحكاية ونهايتها التي لا يتمناها أحد وما كانت تخطر على البال.

أقام العروسان مع والديه إذ لم يكن هناك غيره بعد فراغ البيت بعد زواج أخواته كلهن، وسفر أحد أخويه التوأم إلى الخارج وسفر الآخر إلى العاصمة حيث يكمل دراسته العليا، وبعد موافقة العروس وأهلها على هذا.

مرت الشهور الأولى على خير... تقريبًا نحو ثلاثة أشهر ثم بدأ النزاع.
في البداية غيرة خفيفة تكاد لا تذكر حين رآها مرة لا تستر نفسها كفاية في حضور والده، نهرها عن هذا وحتى أمه فعلت ذلك... أطاعت هي تلك المرة ونفذت دون مناقشة.

في مرة أخرى تفاجأت أمه حين رأته قد سمح لها بالتزين والخروج دون حجاب لحضور أحد الأعراس لكنها أخبرتها أنّه كان قد سمح لها بهذا في فترة الخطبة أثناء خروجهما معًا.
ومرة كان يتنزهان بحضور أمه بعد أن ألحا عليها أن ترافقهما لكن النزهة انقلبت إلى خناق حين اتهمها باستمالة الناظرين لها بجمالها.
وبدأت غيرته تتفاقم، وهي تستفزه بها إذ كانت قاصدة لكل لفتة وكل حركة من طرفها للفت الأنظار إليها، كانت تتفاخر بجمالها وتعلم تأثيرها على الناظرين من قبل حتى أن تعرفه.
وهو يكاد ينفجر من تصرفاتها المقصودة حتى وصل الأمر لضربه لها لكنها لم تستكن أبدًا.
وفرحة الأم بزواجه انقلبت نقمة ووصلت حتى تمنيها أنه لم يتزوج أبدًا.

كل يوم ضرب وخناق يُسمع من خارج البيت... هو يأمر وهي لا تطيع... هو ينهي عن عدم فعل وهي تفعل، حتى طفح الكيل بأمه ولم تستطع السكوت أكثر.

"كل هذا بسببك... لو كنت متشددًا من الأول معها لأطاعتك... لو لم تكن تسمح لها بفعل أشياء على غير العادة لما طالبتك بها الآن... والآن جد حلا لما وضعت نفسك فيه"
ولم يجد أي حل... لا بالنهي ولا بالضرب ولا بتركها عند أهلها لعدة أيام. ومع كل هذه المشاكل أصبحت حاملا... ولا ينكر فرحته أبدًا وقد أمل أن تهدأ وتستكين بعد أن تصبح أمًا.

تحققت أمنيته ومرت شهور الحمل بسلام، هدأت هي لصعوبة فترة حملها وكانت نعمة

بالنسبة له حتى رزقا بأول مولود لهما وكان ذكرًا، أطلق عليه اسم (يقين).
لم تسعه الدنيا من الفرحة، وحضرت كل العائلة لتجهيز السبوع بعد تأجيله أسبوعين حتى ترتاح الأم وتقوم بسلامة.
وفترة السلام انتهت سريعًا وعادت المشاكل بينهما...
لا تلبسي هذا ولا تفعلي هذا...
وطبعا عادت هي لطبعها وتحكم غرورها بها، وكالعادة لا أذن تصغي ولا عقل يعقل.
****

مرت أربع سنوات كاملة مع كل تلك المشاكل حتى وصلت لتحريمها من طرفه وتدخل أهلها ليردها بوعد منهم أنهم ردعوها ونصحوها وستكون مطيعة هذه المرة.

وردها فعلا وحملت من جديد... هذه المرة لم يكن الحمل متعبًا لها لكن أمه من كانت ترعى ولدهما الأول لقلة مناعته ومرضه وإهمال زوجته له.

رزقا بالمولود الثاني وسماه والده (لؤي)، وهذه المرة لم تكن هناك أي فرحة بعد كل المشاكل التي حدثت بينهما وعزمها هي الذهاب لبيت أهلها وعدم العودة.

في كل مرة ترحل يردها أهلها أو أهله رغم كل شيء... حتى بعد علمهم بخيانته لها وأنها ضبطته بنفسها يخونها مع بنات من هاتفه.

لم تتحمله كما لم يتحمل هو في وقت طيشها وأصبح العيش تحت سقف واحد مستحيلا بالنسبة لها... أما هو كان رغم كل ماحدث لا يزال يحبها ولا يزال تحت تأثير سحر جمالها.

حتى عاد ذات يوم إلي البيت من شغله ولم يجدها، بحث عنها في كل أرجاء البيت ولم يجدها... لا هي ولا أمه.

تنهد بعد ما قُبض قلبه، إذ أكيد خرجت مع أمه لزيارة إحدى أخواته كالعادة... هكذا راح يطمئن به نفسه.

اتصل بأخته ليحدث أمه ويتأكد لكنها أخبرته أنّها ليست معها وأنها تركتها نائمة في غرفتها.

جن جنونه... كيف يحدث هذا؟ كيف تخرج من غير إذنه؟

خرج مسرعًا من بيته قاصدًا بيت جدتها القريب يبحث عنها ولم يجدها أيضًا... عاد لبيته واتجه لغرفتهما مباشرة ليفتح خزانة الملابس، لم يجد أي أثر لملابسها ولا ذهبها سوى من سلسال وحيد فوق طاولة الزينة

كانت كل مرة تخلعه عند مشاجراتهما ظنًا منها أنها هكذا تعيد له رزقه.

فجأة سمع رنين هاتف المنزل فاتجه إليه وقلبه واقع بين قدميه، كان يشعر أن قنبلة ستنفجر عما قريب...

وكانت هي من تتصل وفجرت على مسمعه القنبلة التي توقعها... ولكن ليس بهذا السيناريو المتمثل في هروبها آخذة معها ابنهما الصغير وتاركة له الكبير مع شخص من عائلته لن تخبره من يكون لتتركه يكاد ينفجر من الغيظ.

فعلت هذا كي يطلقها وإذا أراد رجوعها بعد فعلتها إذن هو ليس برجل... هذا ما تجرأت وأخبرته به.

****

من هنا بدأت سلسلة المحاكم بعد حضور الموثق إلى البيت لعمل محضر وإثبات هروبها من البيت وحددت الجلسة الأولى بعد شهر.

في يوم الجلسة الأولى رآها في الرواق مع أمها وابنه الصغير الذي فور أن رآه حاول الانفلات منها ليجري إليه لكنها لم تسمح له بهذا.

دخلوا القاعة بعد النداء باسميهما... كان طلبها الطلاق وقرار لا رجعة فيه بعد ما حاولت القاضية استمالتها للرجوع عن طلبها ولكن كانت مصممة.

وهو كان طلبه الرجوع بعد ما سُئل، كانت هذه نصيحة المحامي حتى لا يدفع المال المطلوب للطلاق ولثبوت هروبها من بيت الزوجية وفي قرارة نفسه هذا أيضًا ما كان يريده.

عدة جلسات من محاولة الصلح المرفوضة من طرفها، كانت تؤجل الجلسة كل مرة لعدم التوافق بين طرفي النزاع.
وفي أحد الأيام ذهب لبيت أخته الكبيرة عند رجوعه من المحكة منهارًا
"ماذا تريد أنت؟ هل بعد فعلتها ما زلت تريدها؟!"
أجاب والجواب لم يكن مقنعًا لها ولا له هو شخصيًا إذ ينافي مايشعره تجاهها ولكن رجولته لا تسمح له بعد فعلتها المخزية تلك.

"لا، لا أريدها هي... أريد أولادي أن يعودوا إليّ ويتربوا في حضني... حتى الكبير أخذته بالقانون بعد ماتخلت عنه في الأول... أريد أولادي ياناس افهموني"

كانت تنظر إليه ولسانها لا يتجرأ أن يقول مافي خلدها... أنه يكذب ودموعه لا تنطلي عليها... سألته برفق
"حسنا، وما الحل في رأيك؟ يجب أن ننتهي من هذا كله، فوالداك قد نفد صبرهما ولم يعودا يتحملان كل هذا"

"أعلم هذا يا أختي أعلم... لقد اقترح علي المحامي أن أطالبها أن تتنازل عن الولدين وأطلقها دون أن تدفع هي أي شيء كما يُفترض بعد أن طلبت هي الطلاق"
"يا إلهي....هل ستقبل؟! لا يوجد أم على وجه الأرض يمكن أن تتخلى عن فلذة كبدها"
"لا أدري... لأجرب وأرى"

وحدث مالم يتوقعوه... بعد عرض اقتراحه في المحكمة، قبلت على الفور وكأنها بهذا تريد أن

توصل له أنها لا تطيقه وستفعل أي شيء للخلاص والتحرر منه.
كانت صفعة له... لم يتوقع أبدًا أن تقبل وتتخلى عن أولادها، لا يوجد أم تفعل هذا... وكأنه كان متأكدًا من رفضها لطلبه وهكذا يضمن عودتها إليه دون أن يصرح بهذا لأحد حتى بينه وبين نفسه... لا يريد الاعتراف بتلك الحقيقة.
والحقيقة تقول أنه لا يزال يحبها وتحت تأثير سحر عشقها الأسود رغم كل ماحدث بينهما.
****

وهكذا انتهى النصيب...
انتهى بالطلاق بعد زواج دام لسبع سنوات...
انتهى مُخلِفًا ضحيتين لا ذنب لهما في كل ماحدث سوى أنهما وُلدا لأبوين غير مسؤولين، أبوين لن يغفرا لهما كل معانتهما

من الصغر... أم تخلت عنهما وأب بقي تحت تأثير سحرها رغم انفصالهما، وهما الملقبان باليتيمين ووالداهما على قيد الحياة.

والنصيب انتهى رغم أنه كان منتهيًا من بدايته وظهور علامات تنذر عدم دوامه مهما طال الزمن.

ولله شؤون... وكلها أقدار لا مفر منها، وعبر وحكمة للذي يستوعب كنهها.

****

الفراشة

وسط الحديقة ترفرف بأجنحتها المميزة بألوان امتزجت بين لون السماء الأزرق الصافي واللون الزهري للورود، كلون أحلامها الوردية، تميزت وانفردت عن باقي قريناتها بجمال لم يكتسبه أحد بصفاء ونقاء روحها.

خرجت للتو من لفتها الحريرية، ترقص بخفة ونعومة بين زهرة وأخرى دون أن تميز بين النافعة والضارة فقد سحرتها بشكلها الخلاب وعطرها الفواح ولصغر سنها وقِصر مدتها بينهن أضحت كل الورود لها سواسية ولا تعلم أنها ستقع ضحيتها وستستنشق عبيرها سماً أسود مخدوعة بعطر فواح غدار، فراحت تذبل يومًا بعد يوم، وأي نسمة خفيفة تُوقعها وقد أصابتها الهشاشة بعد ما كانت قوية ومفعمةً بالحياة.

ويا للعجب لم يحذرها أحد.
ولم العجب؟
تكاد تجزم أنهن أردن لها هذا وكيف لا وهن من أرشدنها لتلك السموم، ترى هذا في أعينهن وهن يمثلن الحزن عليها، وحتى لم يستنشقن مما استنشقت بعد ما دلوها عليها.
ظنت أنهن عائلتها والأمان موجود معهن إذ توقعت الأذى من غريب ولم تتوقعه من القريب.
وجب الرحيل الآن فلم يعد هناك أمان لا في الحديقة ولا أزهارها وحتى لو ستظلم النزيهة منها، ما باليد حيلة...
هي ضحية الغدر والخيانة ولا أحد حذرها منهن.
رحلت بعدها...

رحلت وعائلتها لحديقة أخرى، حديقة جديدة بأناس جدد فاتحين لها ذراعين يرحبن بها فالغريب أحن عليها من القريب، هذا ما اكتشفته.

رحلت إلى متنفس جديد بعيدًا عن الحاقدين والحاسدين علّ وعسى أن تسترجع بريقها المفقود.

****

الخاتمة

لا نهاية سعيدة ولا تعيسة للحكايا وأبطالها ما دام في العمر بقية والروح في جسدٍ لم تُسلَّم لبارئها.
ولقلمي الحبر مالم ينفد منه ومن واقع الحياة يوحى إلي لأقصها وأجسدها لكم حبر على ورق.

أرجو أن تكون الحكايا قد أعجبتكم، وأن تتجاوزوا أي خطأ أو عثرة فهذا أول عمل لي.
****

تم بحمد الله.